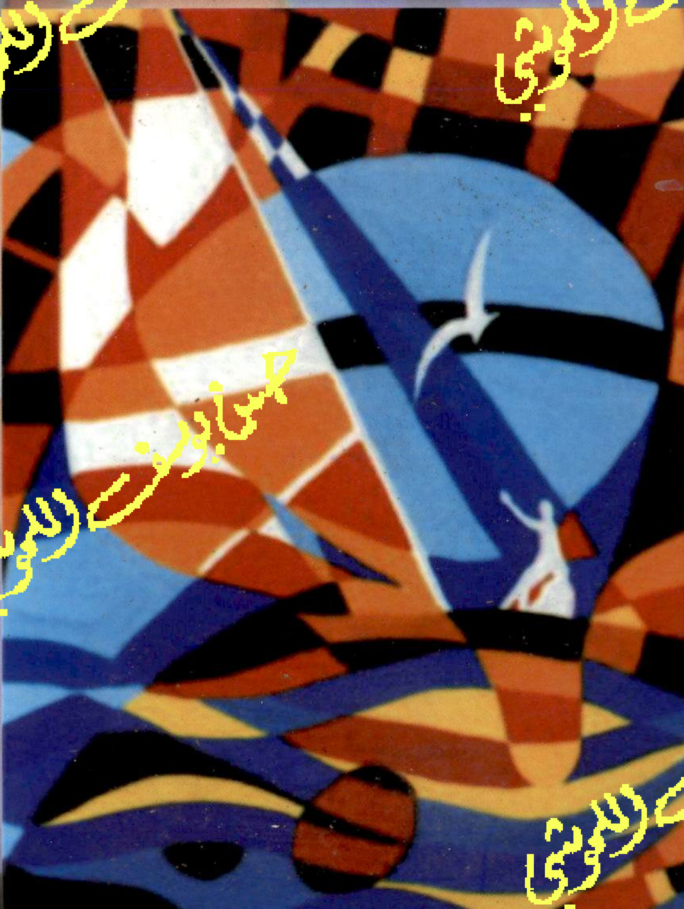
الرجل والنورس

مجموعة قصصية

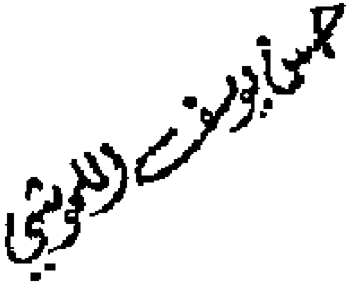


حسين نصيب المالكي

مجلس الثقافة العام

حسن أبو يوسف اللويشي

الــرجـل والـنــورس



إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ . د . سليمان صالح الغويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصر الدعيسي

علي الفلاح

هليل البيجو

جابر نور سلطان

محمد عبدالله الترهوني

سالم أحمد الأوجلي

الرجل والنورس

مجموعة قصصية

حسين نصيب المالكي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتـاب الرجل والنورس (مجموعة قصصية)
اسـم الــمؤلف حسين نصيب المالكي
سنـــة النـــشــر 2010 م
رقـــم الإيـــداع 380 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الـترقيم الـدولي 6 - 850 - 38 - 9959 - 978

تـصميم الغـلاف علي العباني
لــوحـــة الغـلاف عادل جريوع
التنفـيذ الفنــي دار قـــباء الـحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت
هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161
فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار
هاتف 0021821449894 - بريد مصور 00218213335388
ص ب 2764 طرابلس
فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني
هاتف 0021861224157 - 00218612241578
بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي
بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

أنتيبرجوس

- 1 -

« أنتيبرجوس » [1] بوابة التواصل نحو الشرق .. على أديمها دار صراع طويل ومدمر .

عندما احتلها الغزاة الطليان أحاطوها بسور ضخم .. ارتفاعه متران .. وأعلاه مثبت بشظايا الزجاج .. له بوابتان أطلقوا على بوابته الغربية باب درنة وعلى بوابته الشرقية باب السلوم ومنع الاحتلال الإيطالي الليبيين من دخول المدينة إلا تحت السياط أو القيام بأعمال السخرة وغيرها من الأعمال الوضيعة. أو بتصريح رسمي يسمى البرميسو.

حدثني أبي عن المدينة عندما كنت صغيراً وقال لي:

- عندما أشعل الرجل الأبيض فتيل الحرب الكونية الثانية أوصدت المدينة أبوابها من جديد في وجه قاطنيها الذين

---

(1) أنتيبرجوس: الاسم التاريخي القديم لمدينة طبرق .

فروا من جحيم الحرب المدمرة واختفوا في المرصص والكهوف والوديان المجاورة.......

توالت الهجمات على المدينة الشهيدة. وتساقطت أطنان القنابل عليها .. حاصرتها آلاف الوحوش الحديدية تترّست بقلاعها أعتى الجيوش .. تكسرت على صخرتها ملايين السيوف والنصال .. بكى على أعتابها دهاقنة الحرب وأدهى الجنرالات بعد سنوات خرجت « أنتيبرجوس » من الحرب منهوكة القوى ممزقة الأوصال ..

بعدما ألقى المتحاربون أسلحتهم وآلياتهم وذخيرتهم على أبواب المدينة وضواحيها في كل شارع في كل وادٍ في كل سهل آليات مدمرة .. سيارات معطلة .. دبابات معطوبة وحطام طائرات. ذخيرة من مختلف الأشكال والأنواع والأحجام.. قنابل ألغام أفراد دبابات بقايا صواريخ وراجمات.. أحذية ملابس عسكرية أواني طعام. خوذات .. قلادات .. سلاسل .. مفاتيح.. بقايا ذكريات وأحلام لم تتحقق تحولت كلها إلى غنائم سهلة في أيدي أناس لم يشاركوا في الحرب وإن دفعوا ثمنها باهظا فيما بعد.

فما إن وضعت الحرب أوزارها، حتى هبط على المدينة

رجال كثر أرهقتهم الفاقة وأنهكتهم الحاجة للعمل .. فتدافعوا على جمع الرابش كيفما اتفق ... يفككون القنابل والألغام لسد رمق أبنائهم .. فلا يلبثون حتى يتحولوا إلى وجبة متناثرة في العراء.

حدثني الحاج خيرالله الشاعري عن تلك الفترة القاسية وقال:

- لقد سقط الكثير يا بني من ضحايا جمع الرابش في هذه المدينة أتذكر أربعة رجال من الزنتان تفجرت فيهم قنبلة بالقرب من المستودع الذي كنت أحرسه أتذكر يومها كيف تطايرت أشلاءهم وتناثرت من جراء الانفجار ولم أجمع من عظامهم ولحمهم إلا القليل حيث دفنته في ذلك الرمس.

لقد كان يُسْمَع كل يوم في أرجاء « أنتيبرجوس » دوي الانفجارات التي كان يذهب ضحيتها العديد من المواطنين نشطت تجارة الخردة وتدافع الأهالي مع غيرهم على جمع الرابش (مخلفات الحرب) من نحاس وألومونيوم وحديد لقاء دراهم معدودة كان يمن بها عليهم ذلك المقاول اليهودي السمسار « بيوناحوم » الذي أصبح يمتلك أكبر مستودعات في أطراف المدينة .. ثم أخذ ينقل ما خزنه في تلك المستودعات عبر الميناء

إلى البواخر التي تحمله إلى أوروبا ويبيعـــه هنـــاك بملايـــين الدولارات .

أخبرني عمي صالح قائلاً :

- لقد عملت في شبابي في مستشفى «حبشي» فـــي بدايـــة الخمسينيات.. وقد كانت تصل إلينا أعـــداد كبيـــرة مـــن ضحايا الرابش كل يوم .. وأتذكر جيـــداً كيـــف جاءنـــا الدكتور حبشي من لبنان ولم يكن يعـــرف شـــيئاً عـــن الجراحة والعمليات والذي سرعان ما تفنن وتعلـــم فـــي أجساد الليبيين فن إجراء العمليات الجراحية حتى أنه لـــم يمض عليه عدة شهور حتى أصبح طبيبا جراحاً مشهوراً يشار إليه بالبنان.

كما كانت تعمل معنا في مستشفى حبـــشي العديـــد مـــن الراهبات الممرضات المخلصات وعدد قليـــل مـــن العـــاملات الليبيات وهن فوزية ورجعه ثم عائشة التي أصبحت زوجة لي فيما بعد.

هذه هي « أنتيبرجوس » التي احتضنت الجميع، وفتحـــت ذراعيها لكل من جاءها فهي آسرة محبوبة يجد فيهـــا الراحـــة

والهناءة كل من يستقر بها. أسر وعائلات معروفة كانت يعرف بعضها بعضاً من خلال التواصل والاحترام المتبادل والمحبة

« أنتيبرجوس » ملحمة شجية وأغنية عذبة يحتضنها البحر من ثلاث جهات .

- 2 -

كانت « الحطية » تجثم فوق ربوة عالية تطل على البردي القريب من البحر والذي تحتجز مياهه الأسماك في حالتي المد والجزر وهي امتداد الأرض غرب الشاطئ .

« الحطية » كانت خارج سور المدينة وتستلقي على ضفتي شارع رئيسي تتقابل فيه الدكاكين والمحلات التي تبيع المواد الغذائية والكيروسين، أتذكر من تلك المحلات دكان العجيلي، ودكان القري، ودكان ابعيو، ومجزرة سيدي بلقاسم الوحيدة، ودكان بن طاهر، ودكان بن عيسى وغيرهم...

على ذلك الشارع الذي يفصل « الحطية » إلى قسمين كانت تسير عربات الحمير العائدة من سوق المدينة المحملة بالحطب أو براميل المياه العذبة أو تلك التي كانت تحمل الدقيق والقادمة من طاحونة بوسيف.

مازلت أتذكر عربة عمي المقرحي والتي كان يجرها حصان حيث كان يبيع الكيروسين للأهالي، وكذلك عربة بوالشقرا وعربة بوحرق وغيرهم .

حدثني أبي عن « الحطية » قائلاً :

– « الحطية » يابني على أيامنا لم تكن سوى نجع بدوي، مكون من بيوت الصوف والقماش المتراصة فوق هذه الربوة، وهي خارج سور المدينة، وبالقرب منها وادي الجدارية، ولكن بعد عشرات السنوات، تحولت الحطية إلى أكواخ من الصفيح المتلاصقة وبيوت من صناديق الذخيرة الفارغة .

« الحطية » على أيامنا كانت تقطنها عائلات فقيرة وكادحة لكن لا توصد أبواب بيوتها في وجوه بعضها البعض ،عائلات تغمرها المودة والمحبة، أكواخها دائماً مشرعة الأبواب وصنبور مياهها الوحيد الجاثم وسط الحي ملتقى العشق والعشاق ومكان لمعرفة جميع الأخبار والقصص كقصة مدينتي هذه التي لم تزل غافية على أعتاب البحر كحورية عاشقة.... «الحطية » كانت تمتاز بجمال موقعها على الشاطئ الغربي، هذا الشاطئ الجميل برماله الناعمة وزرقة مياهه ونظافته.

- 3 -

ها أنت تضيع أوقاتك في البحث عن الدود في الأماكن الخربة سواء في وادي الجدارية أو في النفايات الكريهة.. تقتل نهارك باصطياد الطيور ونصب الفخاخ، وما أن تلمح أي طائر .. بوصفرة .. بوحمرة .. بوركيزة .. عضيضة. حتى تأخذ في مطاردته و ملاحقته وتخاطبه وأنت على بعد بضعة أمتار منه في خبث ودهاء وتضع أصابع يدك اليمنى أسفل ذقنك الصغير وأنت تردد بصوت عال:

- يا بوصفرا غادي .. غادي أشوي شور الناطور.. تلقى دودة جاعور.. صفراء وتدُور...

كأن الطائر يفهم لغتك. وتنطلي عليه حيلتك وخدعتك له، فيقفز ويتطاير في اتجاه الناطور حتى يقترب من الفخ المخفي تحت التراب ولا تظهر منه سوى تلك الدودة البللورية الصفراء.. يشعر بشهية نحوها.. تتبعه أنت في حذر وترمقه في فرح وما أن ينقض على تلك الدودة وهو يحاول الإمساك بها والتهامها حتى يطبق عليه الفخ ويظل ينتفض ويتقلب على التراب دون أن يستطيع الخلاص من الفخ.

تهرول أنت نحوه في فرح وانتصار وتقبض عليه بين يديك وهو يرتعش تشعر أنت بالزهو والغبطة ثم تنصب الفخ من جديد بعد أن تضع بداخله دودة بللورية صفراء أخرى، وتأخذ في البحث عن طائر آخر حتى توقعه في الشرك .

وما أن تختفي الشمس خلف الأفق البعيد، حتى تعود أدراجك إلى كوخك الصفيحي، وبين يديك سلة صغيرة مملوءة بعدد من العصافير التي اصطدتها .

وبعد انتهاء موسم الطيور، كنت تلعب مع رفاقك من صبية الحطية بالبطش والتصاوير، أو بتلك العربات الصغيرة التي كنت غالباً ما تصنع عجلاتها من علب الحليب الصغيرة، أو مغاطي القازوزة، أو تطارد "الجرذان" في سبخة الحطية وتظل تحفر عليها، بل وتدخل يدك في تلك الحفر والسراديب، في جرأة دون خوف أو وجل في أن يلدغك ثعبان أو تلسعك عقرب، وما أن تقبض على واحد من تلك "الجرذان" حتى تشعر بالبهجة وأنت تشويه على نار الرمث الهادئة وتلتهمه في لذة ونشوة فهو وجبة دسمة طيبة بالنسبة لك، بعد ذلك تعود أدراجك من جديد نحو الكوخ الذي ينتصب هناك فوق تلك الربوة في مدخل الحطية ..

كم كانت طفولتك شقية وبائسة ولكنها كم كانت جميلة وأنت تمرح هنا وهناك دون قيود، في حرية طفولية بريئة.

لكن فجأة تغيرت حياتك وانقلبت رأساً على عقب عنـــدما أطل جاركم سميع عصر ذلك اليوم وأخـــذ يتجـــاذب أطـــراف الحديث مع والدك شرعت تنصت للحوار الدائر بينهما:

- ابنك يا نصيب هذا كم عمره اليوم؟

أجابه أبوك في بساطة:

- قد تجاوز سن التاسعة..

قال له الحاج سميع في غضب:

- وكيف تدعه هكذا وقد كبر؟

- وماذا أفعل له؟

- أدخله المدرسة...

تردد أبي قائلاً في حيرة: ولكن....

قاطعه الحاج سميع:

- لا تحمل هما يا جاري سوف آخذه معي غداً إلى المدرسة القرآنية ...

شعرت بالرهبة والخوف .. المدرسة القرآنية .. الفقيه والفلقة والعصا والحرمان من اللعب واصطياد الطيور والاستيقاظ مع الصباح الباكر.

ومع صباح اليوم التالي كنت ترتدي البنطلون الجديد والقميص الأبيض اللذين اشتراهما لك أبوك وكذلك الحذاء، ووضعت الكراسات والأقلام في كيس الدقيق الذي جعلت منه حقيبة لك،

وانطلقت مع الحاج سميع على الأقدام من « الحطية » في اتجاه المدرسة في أقصى الشرق خلف قصر الملك.. بعد أن وصلتما أدخلك الحاج سميع فصل الصف الأول ودلف بك نحو الفقيه، الذي كان يجلس على الكرسي في مواجهة التلاميذ، يرتدي جرده الأبيض وشنة حمراء على رأسه، والتلاميذ يجلسون أمامه في الأدراج، وهم يتمايلون ويهزون رؤوسهم وبين أيديهم الألواح الخشبية، وما أن دخلت حتى صوبوا أعينهم نحوك، شعرت بالخوف يعتريك تمنيت في تلك اللحظة لو أنك تستطيع الفرار والرجوع من حيث أتيت .. ولكن لا مفر ولا حيلة لك في ذلك .

نهض الفقيه من على كرسيه وأخذك حيث اجلسك في

الدرج الأمامي إلى جوار طالب صغير، كان يحدق في لوحه وهو يتمتم بكلمات، ثم اختفى بعد ذلك الحاج سميع بعد أن أوصى بك الفقيه خيراً.. بعد برهة أشار إليك الفقيه أن تحضر إليه ومثلت بين يديه ووقفت .

أخذ لوحاً كان إلى جواره ووضعه على منضدة أمامه غمس قلم القصبة في زجاجة الحبر المصنوع من الصوف المحروق وشرع يكتب بخط جميل بينما كنت تقف أمامه مرتبكاً في خجل و حياء وهو يرتل أمامك وأنت تردد خلفه بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين........

ثم أمرك بالعودة إلى مقعدك وتلاوة السورة عدة مرات حتى تحفظها وتسمِّعها في الغد.

صرت تقرأ بصوت عال ما كتب في لوحك مثل رفاقك وكنت عندما تعجز عن قراءة أي آية تطلب من رفيقك الذي يجلس إلى جوارك قراءتها لك.

ومع مضي الوقت دق جرس المدرسة معلناً استراحة

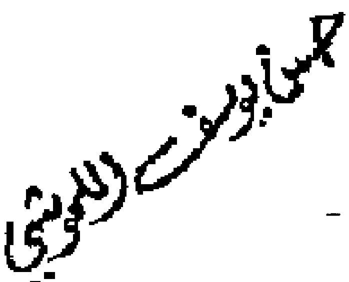
الإفطار.. وضعتم الألواح جانباً وقفزتم تهرولون نحو المقصف ووقفتم في طابور طويل كانت توزع عليكم شطائر الحلوى المعجونة.

ومن يومها تبدد خوفك وتلاشى ذعرك وأحببت المدرسة والاستيقاظ الباكر.

ووزعت المدرسة عليكم البدل الشتوية والأحذية الشيكية بالمجان وكذلك إفطاركم كان كالعادة: يومان شطائر حلوى معجونة ويومان شطائر التن ويومان شطائر المربى بالإضافة إلى أكياس التمر والكاكوية التي كانت توزع عليكم كذلك بالمجان كل خميس .

ومن يومها تعلمت في تلك المدرسة كيف تفك الخط وتتعرف على طلاسم الكلمة.

كما عقدت صداقات وطيدة مع أترابك في تلك المدرسة التي أحببتها واحترمت مديرها الجليل وأساتذتها وفقهاءها وتلامذتها والمشرف أبريك الدمنهوري.



- 4 -

منذ ذلك اليوم أصبحت تخرج كل صباح من كوخكم في الحطية وتسير على قدميك حاملاً حقيبتك الصغيرة متجها نحو مدرستك القابعة هناك في أقصى شرق المدينة مع غيرك من الطلاب. كانت حركة السيارات محدودة وكذلك الأهالي القاصدون أعمالهم، كانوا يسيرون على الأقدام.. والحافلات مفقودة إلا عند الجيش الإنجليزي في الحامية أو القاصدة قاعدة العدم..

ما إن تجتاز سبخة الحطية حتى تصعد نحو المدينة، تخترق شارع الجيش المؤدي إلى الحامية البريطانية، ماراً بالقرب من ورشة جملي، ما أن تدخل شارع الكيت كات حتى تقابلك تلك الطاحونة الوحيدة العتيقة في المدينة، كان البدو يربطون حميرهم حولها، وقد جاءوا بالقمح والشعير لطحنه في طاحونة الحاج بوسيف والتي كان يشغلها في البداية بالنفط وكانت بدايتها بطحن القمح والشعير للأهالي، وفيما بعد صار يشغلها بالكهرباء وكذلك كان يشتري البهارات كمادة خام ويقوم بطحنها وبيعها للمواطنين.

وقد ذكر لك والدك أنه في إحدى سنوات الجفاف الماضية اشترى الحاج بوسيف الشعير من خارج البلاد وأخذ يقوم بطحنه هو وأبناؤه وبيعه للأهالي ..

ما إن اجتزت الطاحونة حتى لاحت لك البيوت العصرية الحديثة، المستلقية على جانبي الشارع والتي تقطنها العائلات الإنجليزية، والتي يعمل قاطنوها في الحامية البريطانية الجاثمة عند نهاية شارع الجيش أمام حي شاهر روحه، أو في قاعدة العدم التي تبعد عن طبرق في الجنوب الشرقي بحوالي ثمانية وعشرين كيلو مترًا.

أما أنتم الفقراء فتأوون إلى الأحياء الفقيرة مثل الحطية وجبيلة النور وباب درنة وتقطنون أكواخ الصفيح والزنك.

ما أن تصل إلى نهاية شارع الكيت كات أو شارع طاحونة بوسيف، حتى تدخل شارع الاستقلال، وتمر من أمام الكنيسة الرابضة في وسط المدينة وتتجه نحو الشرق حتى تصل إلى مدرستك خلف قصر الملك دار السلام في أقل من ساعة، مع بداية كل يوم دراسي جديد.

لم يعد لديك أوقات للعب والراحة سوى في أيام الإجازات والعطلات الرسمية، كنت تعود كل يوم قبيل غروب الشمس،

بعد انتهاء اليوم الدراسي باستثناء يوم الجمعة وتـدخل شـارع الاستقلال، ثم تتجه نحو عمارة الماجري حيث تمر مـن أمـام مصوراتي بالحولة، وهو المصور الوحيد في المدينة حينـذاك، الذي جاء من مدينة درنة، وفتح معملاً للتصوير اليدوي في تلك العمارة، وكانت الصور التي يقوم بتصويرها وطبعها هي أبيض وأسود، ولا تتعدى تسعيرة الست صور أربعين قرشـاً، كـان استلام الصور لأهل المدينة بعد أربع وعشرين ساعة أي فـي اليوم التالي أما الذين جاءوا من القرى البعيدة فكانوا يـستلمون صورهم بعد ساعة واحدة من التصوير، حيث كـان بوالحولـة ومعه خالد بو سميحة يقوم بطبعها وتحميضها.

تتجه نحو الغرب مع ذلك الشارع عائداً إلى كوخكم وبعد أن تنحدر تلوح لك من بعيد الحطية فوق تلك الربوة العالية .

كانت تلك المدرسة القرآنية الوحيدة في المدينة طلابها خليط من أبناء الأسر الكادحة وأبناء بعض التجار المحدودين في المدينة.

كنتم في تلك المدرسة لا تعرفون بعضكم إلا من خـلال أسمائكم فقط أنتم الطلاب لا تعرف هذا من أي قبيلة يكون ..

نظام الدراسة في المدرسة كان يبدأ من الثامنة والنـصف صباحاً بحفظ وتلاوة القرآن الكريم على أيدي فقهاء من أمثـال

عبدالرسول المهدي، أحمد عثمان البكاي، داوود مسعود، رجب الزليطني، محمد القماطي، محمد نوح، محمد شلوف.

وبعد الاستراحة كنتم تدخلون الفصول وتدرسون المعارف والعلوم على أيدي أساتذة أجلاء من أمثال فرج بدر الشاعري وسعيد الشريف وعبدربه أمعزب وعبدالله الزوي وإدريس النويصري وعبدالحميد الجياش وصالح الجالي وغيرهم..

حيث كنتم تدرسون المواد الأدبية مثل النصوص والقراءة والتربية الإسلامية وعلم التوحيد وكذلك مبادئ الحساب والعلوم. والمنهج الذي كنتم تدرسون به هو المنهج المصري فمن الموضوعات الطريفة التي كنتم تدرسونها سرحان بين الغيط والبيت، والقرود وبائع الطرابيش وغيرها..

ومن الذين استلموا إدارة تلك المدرسة تتذكر منهم عبدالرحمن المغربي وبعده عبدالرحمن الفاسي ثم الأستاذ سعيد الشريف.

كما كنتم تدرسون في فترة ما بعد العصر حتى غروب الشمس في حفظ وتلاوة القرآن الكريم.

وتمضي بكم السنوات وكنت دائماً تنجح في تلك المدرسة بتفوق ومن الأوائل ..

- 5 -

وعندما وصلت إلى الصف الخامس في المدرسة القرآنية توثقت صلتك بصديق كان معك في نفس الفصل بل في نفس الدرج أسمر البشرة نحيل العود شعره أجعد يدعى صالح كنت تذهب معه إلى بيته الذي يقع خلف فندق بلاس هوتيل في المدينة وبعد تناول الغداء كان يأتي بآلة البيانو الصغيرة يعزف عليها وتبدأون في تقليد فريد الأطرش في بعض الأغاني وبعد ذلك في المساء كنتما تذهبان معا إلى سينما هايتي والتي كانت تقع أمام فندق الخضروات الزجاجي وقسمت إلى درجة أولى في الدور العلوي، ودرجة ثانية في الدور الأرضي، وزودت بكراسي خشبية وإضاءة ومعدات تشغيل حديثة، وتتذكر أنكما دخلتما معاً ذلك الفيلم المصري والذي كان بعنوان " حب حتى العبادة"

وكان طاقم التشغيل لدار العرض تلك يتكون من كل من خميس التاورغي وحمد الصفراني وعلي المقيرحي، أما الشباك والنظام فكان من اختصاص عطية الشاعري، آدم الحداد، مفتاح بن زابيه، عثمان لامين، أحمد مصطفى عكرّك، وكان بتلك

الدار مقهى يديره عمي علي العمامي حيث يقـدم السندوتـشات اللذيذة والمشروبات والمرطبات والسجائر لرواد السينما.

وتتذكر من أشهر الأفلام التي شاهدتها في تلك الدار الفيلم الهندي من أجل أبنائي والذي استمر يعرض لأكثر من أسبوعين كما أعيد عرضه لعدة سنوات متتالية وكذلك الأفلام الأمريكيـة والمصرية والإيطالية ..

وكان لصاحب هذه الدار هايتي والتي أصـبحت تـسمى باسم صاحبها دار حلمي فيما بعد مقعدٌ في مقدمة الصالة حيـث كنتم تشاهدونه وقبل التشغيل يجلس في المقدمة وبجانبه ميلـود المشرف الذي دائماً يحبه ويعطف عليه وبيد كل واحـد منهمـا كيس زريعة وبعد انتهاء الفيلم كنا نسأله عن الفيلم فيردد عبارته المشهورة :

- هذا فيلم جبار..

وتتذكر أنه بعد مشاهدة فيلم «حب حتى العبادة » جلـست أنت وصالح في الفصل، مع صباح اليوم التالي و دون أن يفطن لكما الفقيه رجب الزليطني وأخـذتما تكتبـان مـشاهد الفـيلم والسيناريو في كراسة صغيرة كانت معكما.. ومـا أن يحـين

موعد العطلة الصيفية حتى تمرح وتلعب وتصطاد البوري من بردي الحطية وفي بعض الأحيان تجمع النحاس والألمونيوم، وتحمله إلى المرغني في وسط المدينة حيث كان يشتريه منكم ببضعة قروش تدخل بها سينما الأهلي "الزني" أو سينما هايتي حلمي، وتشتري شطيرة التن بالهريسة وزجاجة المشروب، من عمك علي العمامي وفي الليل في أيام الدراسة كنت تكتب واجباتك وتقرأ دروسك داخل ذلك الكوخ على ضوء فنار الكيروسين، فلم تكن الكهرباء وصلت للحطية بعد، وبدأت تكبر وتقضي أوقاتك على شاطئ كورنيش طبرق برماله الناعمة البيضاء أما شاطئ الليدو في المنارة فهو ممنوع عليكم لا يدخله إلا أبناء الإنجليز وعائلاتهم فقط ويحاط بسياج لمسافة كبيرة ويتعرض للعقوبة والسجن كل من يقترب من ذلك السياج.

وكنتم تفرحون عندما يقوم أحد الصيادين بضرب لغم في البحر "جلاطينة" حيث كنت تغطس أنت وعبدالسلام عمر والصافي فتح الله وتخرجون بالكثير من الأسماك التي تأخذ في الطفو على سطح الماء.

- 6 -

تذكرت ذلك اليوم عندما كنت طالباً في الصف الـــسادس بالمدرسة القرآنية وكيف دخل عليكم مدير المدرسة في الصباح بعد الاستراحة ووقف أمامكم قائلاً :

- طلابي الأعزاء لن أطيل عليكم الحديث في إيجاز أقول لكم أنتم تعلمون أنه في هذه المدينة لا يوجد معهد ديني وعليه فإنكم سوف تبقون للإعادة سنة أخرى في الصف السادس بهذه المدرسة ..

واختفى بعد أن أوصد الباب خلفه وترككم في حيرة وقلق يالها من صدمة قاسية ..

ماذا سأقول لأبي وأمي؟ هل أقول لهما إن الامتحان قـــد تأجل للعام الآخر إنهما قد لا يصدقان ذلك .

لم تنم في تلك الليلة وأنت تفكر فيما أخبركم بـــه مـــدير المدرسة حتى اهتديت إلى فكرة ما إن أشرقت شمس الـــصباح حتى سارعت إلى تنفيذها .. بعد أن تغيبت عن الدراسة هرولت نحو المدينة اقتربت من مكتب الامتحانات الذي كان يقع وســـط

المدينة وبالقرب من مدرسة الفيحاء للبنات دخلت على المدير الذي كان يقبع خلف مكتبه ينكب على الملفات التي أمامه يتفحصها حييته .. رفع رأسه ونظر إليك بعينين ضيقتين من خلف نظارته الطبية كان يبدو نحيل العود أصلع الرأس قدمت له الطلب وحدثته برغبتك غير أنه بادرك قائلا :

- لقد تأخرت يا بني، تردد، لكنه أمام إصرارك وإلحاحك وقع على طلبك بالموافقة وطلب منك بعض المستندات وصوراً شخصية .. ومنذ ذلك اليوم اتصلت بأصدقائك في الحطية عبد السلام، دخيل، محمود، وطلبت منهم مفردات المنهج والمقرر والمذكرات والكتب .

فكل واحد منهم ساعدك بما يستطيع من كتب ومذكرات.. لم يبخلوا عليك بالمساعدة والشرح حتى للعمليات الحسابية الصعبة .. لم يمض شهر من المذاكرة المتواصلة في ذلك الكوخ حتى كنت قد أصبحت ملماً بالمنهج الخاص بالصف السادس.

وفي الموعد المحدد للامتحان حيث يكرم المرء أو يهان دخلت امتحان الشهادة الابتدائية مع طلاب مدارس المدينة وكان المقر الوحيد لأداء الامتحان في مدرسة المجد الجاثمة وسط المدينة والتي كانت في السابق مستشفى «حبشي».

استمر الامتحان ولمدة أسبوع كانت الملاحظة عليكم شديدة من قبل المعلمين وكذلك لجان المراقبة والامتحان ..

وأي التفاتة أو محاولة للغش يجد الطالب نفسه محروماً من امتحان الدور الأول ومضت أسابيع على ذلك الامتحان الصعب بعد حوالي شهر أذيعت قوائم الناجحين من راديو المملكة حينذاك حيث كنت من بين الناجحين بتقدير جيد .

ويومها أحسست بالسعادة تغمرك لأن التعب والمذاكرة وسهر الليالي لم يذهب كل ذلك سدى .

ها أنت قد اجتزت تلك المرحلة الصعبة وقفزت إلى الإعدادية ولن تبقى سنة أخرى في الصف السادس بالمدرسة القرآنية .. تركت زملاءك في القرآنية ..

قضيت الإجازة الصيفية سعيداً لأول مرة وبينما كنت تتجول في أحد شوارع المدينة وبالقرب من مقهى البلدية عثرت على مكتبة عامة دخلت إليها في تردد .

فوجئت بها مكتبة عامرة بالكتب والمجلات والصحف كانت تنقسم إلى قسمين قسم للأطفال وآخر للكبار .

بها العديد من القراء اطلعت على مجلات الأطفال، سمير وميكي، وقصص الأنبياء للصغار .

عرفت موظف المكتبة إنه من نفس سكان « الحطية » كنت دائماً تلمحه في طريقه إلى المكتبة يمشي على قدميه من « الحطية » إلى المكتبة يتأبط كتابًا إنه نحيل العود متوسط الطول في مقتبل عمره يبدو وكأنه كان يعمل معلماً عرفت فيما بعد إن اسمه أحمد حريص على الكتب يدعو الصغار إلى الهدوء والمطالعة في صمت .. ومن يومها أخذت تتردد على تلك المكتبة في فترة ما بعد العصر حيث تطلع على الصحف والمجلات العربية وقصص الأطفال وعندما لاحظ ذلك الموظف ترددك الدائم وشغفك بالقراءة والاطلاع طلب منك بعض البيانات والصور الشخصية وصرف لك بطاقة إعارة .

ومن يومها أصبحت تستعير الكتب الأدبية والدينية وقصص الأنبياء وألف ليلة وليلة وترجعها إلى المكتبة بعد أيام محدودة .

حيث اطلعت على قصص محمود تيمور وقصص وروايات توفيق الحكيم وعبد الحميد جودة السحار ومحمد عبدالحليم عبدالله وعلي مصطفى المصراتي وعبدالله القويري وغيرها.. هذا بالإضافة إلى دواوين الشعراء نزار قباني وإبراهيم ناجي وأحمد رفيق المهدوي وإبراهيم الأسطى عمر وأحمد الشارف وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم وتلك كانت البداية مع الكتاب ..

الرجل والنورس

تقف وحيداً مع إطلالة الصباح كطائر مهاجر غريب، ببنطالك الأزرق وقميصك الرمادي، ولحيتك الكثة .

الأمواج تتلاطم من حولك بين مد وجزر، تتمشى على الشاطئ الطويل في تثاقل وإعياء، طيور النورس البيضاء تحلق في الجو، وهي ترتفع وتنخفض، مصدرة أصواتاً حزينة .

تحس بالإرهاق، تجلس على صخرة ناتئة في مواجهة البحر، ترنو ببصرك إلى ذلك الأفق البعيد، حيث تلتقي السماء الموج في سواد خفي، تشرد بذهنك وتتذكر كيف كنت في أوج شهرتك ومجدك .

الهاتف في منزلك كان لا يتوقف عن الرنين، ما أن ترفع السماعة حتى يهتف بك صوت أنثوي رقيق:

ـ أستاذي لقد أعجبتني قصتك الأخيرة في مجلة الشمس.

وآخر يبادرك بعد دقائق :

ـ لقد كان مقالك في مجلة الموعد جيداً ويعالج قضية هامة .

ما أن تضع السماعة حتى يعاود الهاتف رنينه من جديد تصغي إلى المتحدث في اهتمام :

ـ أستاذ معك مجلة الشمس لا تنس أن ترسل لنا قصة العدد.

أجبته يومها :

ـ في الغد إن شاء الله .

أشعلت سيجارتك شرعت تنفث دخانها، تذكرت كيف دخلت عليك هي في تلك الليلة، قد سبقها عطرها الفواح، الذي كان له رائحة أخاذة، كانت ترتدي فستانها البنفسجي الجميل، شعرها ينسدل على ظهرها كأسلاك الذهب .

شرعت تتحسس شعر رأسك بأناملها الناعمة بادرتك :

ـ أنت هنا دائماً بعيد عني .

ـ أتغارين علي حتى من الكتب ؟

ـ لم لا أغار عليك ألست زوجي ومن حقي أن يكون لي نصيب فيك .

ـ أنا لم أغمطك حقك يا عزيزتي .

ترنو ببصرك إلى أحد طيور النورس، يرصد تحركات الأسماك بدقة متناهية، ما يلبث أن ينقض على إحداها كالسهم، وما إن يرتفع بها قليلاً حتى تسقط منه في البحر، ترجع بذهنك إلى ذلك المشهد الذي لا يكاد يغيب عنك لحظة واحدة كأنه كابوس ثقيل.

تتذكر يومها كيف أطفأت محرك سيارتك أمام المدرسة الغارقة في هالة من الصمت، وقد انتصف النهار، نظرت في ساعتك كنت قد تأخرت كثيراً عن موعدك المحدد ...

لاشك أنها قد عادت إلى البيت، مشياً على قدميها فقد تأخرت، تقطع خطوات إلى داخل المدرسة، حتى التلاميذ جميعهم قد عادوا إلى بيوتهم .

ما أن اقتربت من باب المدير، حتى أحسست أن قدميك غير قادرتين على حملك، تسمرت في مكانك والعرق يتفصد منك !!!

ـ أأنت في حلم مزعج أم ماذا ؟

كأنك غير مصدق ما يقع أمامك، ما أن لمحك المدير حتى انفض عن زوجتك التي كانت بين يديه في مشهد غرامي مؤثر، وقفز مهرولاً نحو الخارج .

في حين انتصبت هي واقفة مشدوهة كقطة مذعورة، منكوشة الشعر وشهقت دفعة واحدة:

- أحمد .. أحمد

اقتربت منها وشرر الغضب يتطاير من عينيك، صفعتها على وجهها بقسوة وعنف ثم صرخت فيها :

- أنت طالق .. طالق .

ومن يومها جفت الأقلام، وطويت الصحف، تركت لها البيت بما فيه .

ماذا ينقصها وقد كانت ترفل في النعيم ؟ ماذا ينقصها حتى ترتكب فعلتها النكراء ؟ لذت هائماً على وجهك، وفي كل مكان تحل فيه كان يصفعك الأقارب والأصدقاء بالسؤال المتكرر كلما رأوك :

- لماذا طلقت زوجتك يا أحمد ؟

على الشاطئ كان أحمد يقتل نهاره، طائر النورس يعود يحوم من جديد، يكرر المحاولة ما يلبث أن ينقض على إحدى الأسماك يرتفع بها، وهي في منقاره، يفوز بها هذه المرة ويرحل بعيداً .

نهضت من على الصخرة وقد أيقظك طائر النورس من سباتك العميق .

كانت الشمس قد سقطت في البحر، تزاحمت الأفكار لأول مرة في رأسك .. أحسست أنك في حاجة إلى القلم .. إلى الكتابة.

طفقت مهرولاً نحو قريتك الغافية في أحضان الجبل، لتكتب قصة قصيرة، عن طائر النورس بعد انقطاع طويل عن الكتابة ..

من مفكرة مستجد

استوت الطائرة في وضعها الطبيعي، وطفقت تسابق السحاب عائدة بك إلى مدينتك، الموشومة في القلب وفي الذاكرة.. التقطت لفافة تبغ بين أناملك، وشرعت تأخذ أنفاساً عميقة، كان الجالس إلى جوارك يغفو بين الحين والآخر، يبدو كأنه من عدة أيام لم يغمض له جفن، من شاربه الهلالي، ووجهه الأصفر يبدو وكأنه تركي.

فتحت حقيبتك الصغيرة، أخرجت منها كتاباً من الشعر، تصفحته برزت تلك القصاصة الصغيرة، المزينة الحواشي، قرأت فقرة منها.

«وحيدة أنا تعذبني الوحدة، وتؤرقني مرارة الانتظار، في غيابك أعد الأيام والأسابيع، وأحلم بك كل ليلة، فأنا أنتظرك، على أحر من الجمر »، تتلاشى سطور الرسالة من أمامك، تتشرد بذهنك مع تلك الأيام، وكأنها شريط مرئي، يمر أمامك للتو، تتذكر كيف ودعت والدك يومها، وكيف ربت على كتفك قائلاً لك:

- كل شيء يهون من أجل الوطن كن رجلاً يابني.

مازلت تتذكر تلك الساحة المعبدة، التي كنتم تتدافعون نحوها، مع مطلع كل فجر، ببزاتكم العسكرية في لمح البصر، سرعان ما تصطفون في صفوف متراصة متناسقة، مازلت تتذكر يوم أن اصطففت في آخر السرية، والارتباك يبدو عليك، وشهر ديسمبر برياحه المسمومة القارسة وأمطاره الغزيرة يصفعك على وجهك، القشعريرة تسري إلى جسدك النحيل، طفقت تحملق في سرب الحمام، الذي يحلق أمامك فوق ذلك المبنى العتيق، ذكرك يومها بغادتك السمراء الغافية في أحضان تلك الواحة النائية، سرعان ما دب الحنين إلى قلبك، وهزك الشوق نحوها، يا لك من عاطفي ملول، يد فولاذية يومها دفعتك في عنف، أيقظك من شرودك أنه ضابط مديد القامة، مفتول الذراعين، على كتفه تلمع نجمة يتيمة، يدفعك بيده القاسية، وشرر الغضب يتطاير من عينيه، قائلاً:

- تقف في استراحة والفصيل في استعداد أيها الغبي.

أحسست بالخطأ الجسيم الذي وقعت فيه بغبائك، اختلست النظر إلى الأجساد المنتصبة إلى جوارك وأمامك في استعداد، وتخيم عليها هالة الصمت، أصلحت من وضعك، هتفت بينك وبين نفسك:

ـ يالي من غبي حقاً.

الطائرة ما زالت تشق عباب الجــو، تمخــر الــسحاب، المضيفة الشقراء الجميلة، ذات الشعر اللامع القــصير تقتــرب منك وتسبقها رائحة عطر أخاذة سؤال يتكرر في لطــف وأدب ومن بين شفتيها كحبتي الكرز.

ـ ماذا تشرب؟

أشرت لها إلى الشاي، فمدت لك بكــوب منــه، جــارك التركي يصحو من غفوته، يرتشف كوب العصير دفعة واحــدة، ثم يستسلم للنوم من جديد.

تعود تتذكر من جديد ذلك الضابط الزنجي المديد القامــة، وكيف عاد إليك يومها.. بعد برهة يتهادى في مشيته بزهو، أمام السرية يرنو إلى الوجوه الحليقة، والأحذيــة اللامعــة بوجهــه البرونزي المتجهم، وخطواته الرزينة، ها هو يقترب منك، يقف أمامك في استخفاف وازدراء، يبادرك قائلاً:

ـ عندك مكتب بعد الدوام.

كنت مستجداً يومها لم تكن تدري ماذا يعني المكتب؟ هــل هو عقوبة ؟ أم إجــازة طارئــة أم خــروج أم مــاذا؟ الطــائرة

ما زالت تعانق السماء، الركاب بين متحدث إلى من هو بجواره، أو متصفح لمجلة أو صحيفة، أو مستغرق في نوم عميق.

يومها ما أن انتهت الحصة الأخيرة حتى كنت تقف أمام مكتب الضابط آمر السرية والاضطراب يبدو على وجهك المرهق، ومعك طالب آخر أقدم منك يحمل ثلاثة أشرطة على كتفه.

أدى التحية أدخلك عليه لم يلتفت إليك إلا بعد دقائق من اللامبالاة وعدم الاهتمام.

- أنت الرقم (......)

- نعم يا سيدي

- أتدري ماذا فعلت اليوم؟

- ....

- لقد كنت في استراحة والسرية في حالة استعداد.

سجل لك يومها العقوبة، وأمرك بالانصراف في غضب، انصرفت مهرولاً دون أن تنبس بكلمة واحدة .. أزيز الطائرة أخذ يعلو، شرعت تتمايل يميناً ويساراً، المضيفة الحسناء تقترب منك تأمرك بربط حزام الأمان تبرز أمامك شهادة التخرج من تلك الكلية العسكرية، تضعها في الحقيبة تشعر بالسعادة تغمرك والارتياح يثلج صدرك، بينما الطائرة توشك على الهبوط.

الـطـابـور

بعد رحلة التعب المضني، ها أنت قد استطعت أن تـشق طريقك وسط الجموع المتزاحمة، على الشباك الحديدي الصغير الموصد ، تتطاير الشتائم من الأفواه تتدافع الأجـساد، موظـف الجوازات يخرج من مكتبه، وهو يهدد ويتوعد، بصوت عـال غاضب، يصيح في الجموع المحتشدة:

ـ لن أبدأ في إتمام الإجراءات حتى تنتظموا في صف واحد.

قابلوه في البداية بصلف وتحد، ثم انتظموا فـي طـابور طويل، عيونهم مصوبة على الشباك الذي ما لبث أن أطل منـه الموظف، وفي بطء وتثاقل شرع في قبول الجوازات، مـسافر كان يقف خلفك، قتله التململ والوقوف، شعر بنفاد صبره انفجر يصيح بصوت مرتفع:

ـ لنا أكثر من ساعة ونحن ننتظـر، مـا هـذه الفوضـى واللامبالاة؟ سرعان ما وصلت كلماته للـضابط الجـالس على الكرسي الخشبي، الذي كان يراقب حركـة العمـل،

وسط حرارة شمس يوليو الحارقة، التي تنتصب في كبد السماء.

استدعاه إليه، لا شك أن هذا الضابط قد أحس ما أنت فيه من استعجال، فها هو يطلبك، لعله يريد أن ينهي لك الإجراءات قبل الآخرين.

تفحصه الضابط بنظرة فاحصة، أرجعه إليه بعد برهة ونهره في غلظة وقسوة قائلاً:

- اغرب عن وجهي واذهب وقف في مؤخرة الطابور، حتى تتأدب مرة أخرى

جرجر المسافر قدميه في دهشة وخيبة نحو مؤخرة الطابور.

قبل سفرك إلى هذا البلد النفطي، طبعت يومها قبلة على جبين أمك، التي ودعتك وهي تدعو لك، وفتاتك الجميلة، ذات الوجه المدور، هي الأخرى اغرورقت عيناها بالدموع، عند وداعك بادرتها قائلاً :

- لا تحزني يا فتاتي فسأعود إليك مع الربيع القادم ومعي فستان عرسك ..

وودعت يومها قريتك التي تفوح من أزقتها الضيقة رائحة الفقر والجوع، ورياح القبلي، ارتحلت نحو الصحراء البعيدة، حيث الشمس اللافحة والفقراء دائماً يرتحلون.

وبعد أيام وأسابيع من البحث الدائم والترحال، وقد أدمت الأرصفة قدميك، عثرت على عمل هناك في مصنع للطوب الأسمنتي.

ومع كل غروب شمس، كنت تأوي إلى تلك الغرفة الضيقة المسقوفة بالصفيح والألواح الخشبية، التي مضغها السوس .. وأنت متهالك ومتعب.

وتظل تحلم بتلك الغافية في قريتك النائية، تحلم بفتاتك الجميلة والبيت الوارف الظلال، وأنت تغفو على زندها، وتحكي لها عن ليالي الغربة والترحال والعرق الذي كان يغسل جسدك..

- يا للوعة اغترابي عن عينيك يا جميلتي..

أيقظك من شرودك موظف الجوازات ذو السحنة الترابية، وهو يهتف بك:

- أنت هيه أين جواز سفرك؟

سرعان ما مددت به إليه، التقطه منك ثم اختفى وبعد

برهة عاد وهو يهتف باسمك، هززت رأسك مجيباً ومددت لـــه يدك فإذا به يفاجئك قائلاً:

- هذه وثيقة سفر قد انتهى مفعولها .

بادرته والدم يغلي في شرايينك :

- ليس لدي غيرها..

رد عليك ببساطة متسائلاً:

- ماذا أفعل لك؟

آه أيها الفظ الغليظ القلب لو تدري أن هذه الوثيقـــة كـــم دفعت عليها من مئات الجنيهات....

توسلت إليه أن يختم لك التأشيرة، ويدعك تعبر عائداً إلى أهلك المنتظرين أوبتك على أحر من الجمر، خلف تلك الـــتلال البعيدة غير أنه قال لك من جديد:

- كيف أدعك وأنت ليس معك جواز سفر، أأنت أحمق أم ماذا؟

هممت أن تقول له أن يدعك تدخل إلى بلادك، ولن تخـــرج منها مرة أخرى، لكنه لم يدع لك فرصة للحديث وزجرك قائلاً:

- هيا دع المكان لمن هو بعدك ولا تصدع رأسي.

انسحبت تجرجر قدميك من الطابور الآدمي الطويل، دارت بك الدنيا وغابت المرئيات من أمام عينيك، صدمة قاسية لم تكن في الحسبان، أخذت تلعن حظك السيئ، ويومك التعس، غمغمت قائلاً:

- ياالحزني وتعاستي وغيابي الطويل عنكم، ما أشد اشتياقي إليكم لكن ما باليد حيلة!

الصـراخ

أجمل لحظات الكتابة عندي هي عندما يتأخر الليل، ويخيم الصمت والسكون، على كوخنا الصغير الهادئ.

غير أنه في الليالي الماضية جرى ما لم يكن في الحسبان

عندما أطلت علينا المولودة البكر التي سررنا بها كثيرًا أنا وأمها حتى أننا أطلقنا عليها اسم «فرح»

لا أكاد أخلو إلى غرفتي في هذا الكوخ، وأمسك القلم بين أناملي في محاولة للكتابة، حتى تطلق الصغيرة صراخاً حـــاداً، يكاد أن يمزق طبلتي أذني، تهرول إليها أمها، وهي تحتـــضنها في لهفة، لكنها لا تتوقف عن الصراخ، أتوقـــف عـــن الكتابـــة وأسرع إليها في قلق وحيرة، قائلاً:

ـ ماذا بها الصغيرة؟

تجيبني أمها في ارتباك":

ـ لا أدري .. إنها ترفض الرضاعة ولا تتوقف عن الصراخ.

سهرنا بجوارها تلك الليلة، ونحن نقلبها يمنـــة ويـــسرة،

ولكن دون جدوى، وما أن أطل الصباح حتى كنا نحملها إلى أقرب طبيب أطفال، في تلك العيادة أخذ الطبيب يتفحصها.. وضع سماعته الطبية على صدرها، تحسس بطنها، بعد لحظات بادرنا قائلاً:

- إنها ليس بها مرض.. ارتفعت الشمس في كبد السماء، وعدنا بها إلى الكوخ من جديد، وما أن أطل المساء حتى عزمت على الكتابة، وخطرت لي فكرة قصة جديدة، وما أن انساب القلم على الورق، حتى أخذ صراخ الطفلة في الارتفاع من جديد، وتوقفت عن الكتابة واقتربت من الطفلة التي كانت ترفض الرضاعة، ولا تتوقف عن الصراخ، هذه المرة.

أخذتها هي وأمها إلى العجوز الظريفة درافل التي استقبلتنا عند الباب، وأخذت منا الطفلة دخلنا خلفها تلك الحجرة، وضعت إصبعها بقسوة، داخل فمها الصغير، حتى تقيأت الطفلة ما في جوفها، نظرت إليها أمها وهي تصرخ مأخوذة:

- ماذا بها؟

بادرتها قائلة:

ـ هذه الطفلة «محلوقة» بها حلق.. وما أن وصلنا إلى الكوخ حتى كانت الطفلة قد رضعت من ثدي أمها، ثم استسلمت إلى سبات عميق، عندها انخرطت في كتابة تلك القــصة وانساب القلم بين أناملي، وتزاحمت الأفكار على رأســـي تتداعى على الأوراق البيضاء.

الجـرذ

الخيمة تتلاعب بها الرياح، وبداخلها طفلة جائعة تنوح، الأم حائرة لا تدري ما تفعل .. الأب عنـدما اشـتد غـضبه، وأظلمت الدنيا أمام عينيه، قفز مهرولاً نحو الخـلاء، حيـث تراءت له الخيام في أشواط بداخلها كتل بشرية بـين الحيـاة والموت، خيام لا تعد ولا تحصى، مزروعة وسـط صـحراء قاحلة وكثبان رملية.. عند نهاية كل شوط من الخيام تنتـصب المشانق، تبعث الذعر والهلع في القلـوب، خيـام محاصـرة بالأسلاك الشائكة، والجند المدججون بالسلاح المنتشرون هنـا وهناك، ما أن ابتعد عن شوط من الخيام حتى تسمر مكانه، من هول ما رأى رجل طويل كالنخلة السامقة، بلون الليل، كان بين يديه سوط يلهب به ظهر عجوز، يصرخ في وجهها وهي تتأوه وتتألم:

- هل تتأخرين مرة أخرى أيتها الشمطاء ؟

كان يجلدها بالسوط في عنف وقسوة، واصل سيره، بعـد خطوات اقترب من خيمة مهترئة، أمامها يقف رجل مسن، وهـو

يبكي حظه السيئ ويومه التعس، وهو يردد .. (وين الغالي يا دار...)

تركه ومضى في سبيله وتمتم قائلاً:

- أمثالك كثيرون بداخل هذا المعتقل، من الذين أضاعوا عقولهم وفقدوا صوابهم.

واصل سيره، التقى بشيخ مسن كانت تبدو عليه كآبة وسيما الأسى بادره قائلاً:

- هل أنت مريض أيها الشيخ؟

أجابه في حزن وكآبة:

- ليس بي مرض أيها الرجل ثم أخذ يردد (ما بي مرض غير دار العقيله وحبس القبيله، وبعد الجبا من بلاد الوصيله). اتجه نحو الأسلاك الشائكة والجوع يمزقه، ما أن لمح جرذاً يمرق من أمامه، حتى قفز يهرول خلفه وهو يهتف به:

- أين تهرب مني أيها الجرذ ؟

سرعان ما تحفز الجرذ ودفن نفسه في حفرته، واختفى تحت الأرض في سرداب طويل.

عثر الرجل على قطعة حديد، شرع يحفر بهـا ويزيـل التراب بيديه .. عندما أحس بالتعب والإرهاق، انتصب واقفـاً، وهو يمسح العرق الهابط على عينيه، والتفت يمنة ويسرة وهـو يغمغم:

- الكلاب صادروا كل شيء لم يدعوا لنا ما نقتات به..

انخرط في مواصلة الحفر، وإزالة الأتربة، وما أن وصل إلى نهاية السرداب، حتى كان الجرذ ينزوي مرتعـشاً، قـبض عليه بيديه كانت بطنه بيضاء وعيناه يقظتين، وشارباه يرتعشان ابتسم الرجل وهو يتمتم:

- يالك من صيد ثمين ووجبة دسمة. ما أن هم أن يستدير به إلى الخلف، حتى أحس بعقب بندقية يسدد إلى كتفه، بقسوة التفـت إليه كان أحد الحراس «المصَوَّع » بادره الحارس في غضب:

- تحاول الهرب أيها الحقير أليس كذلك؟

- لا ياسيدي.

ضربه بأخمس البندقية على كتفه بقسوة وعنـف، حتـى سقط من بين يديه ذلك الجرذ، الذي ما أن وطأت أقدامه الأرض

حتى أطلق ساقيه للريح، واختفى هناك، خلف الأسلاك الشائكة، صرخ في وجهه الحارس من جديد:

- لابد من معاقبتك أيها القذر. جرجره أمامه نحو «كابو» المعتقل بينما الرجل يردد أبيات ذلك الشيخ العجوز الذي شنقت ابنتاه أمامه في ذلك المعتقل «ما بي مرض غير دار العقيله وحبس القبيله وبعد الجبا من بلاد الوصيله».

المهمة الخطرة

بعد وجبة عشاء مكونة من مكرونة وقليل من اللحم الخارجي.. و مع غروب الشمس كلفت أنا ورفيقي المستجد بمهمة استطلاعية بالسير على الأقدام.

خرجت من المعسكر أنا ورفيقي، وكل واحد منا يرتدى بزته العسكرية، وسلاحه وخوذته الحديدية، فوق رأسه ومعنا جالون الماء الصغير، ونحن نلعن ونسب حظنا السيئ التعس، الذي رمى بنا في هذه القرية الحدودية، التي يكثر فيها التهريب.

أحكمنا قبضاتنا على سلاحنا.. شرعنا في السير كأشباح في الظلام.. لا شيء يبدد هذه العتمة والرتابة والجو الموحش، سوى تجاذب أطراف الحديث مع رفيقي.

قصصت عليه حكايتي مع فتاتي الحسناء، التي تركتها هناك في المدينة الغافية في أحضان البحر، وكيف ودعتني بالأمس، بعد أن أهدتني منديلها الوردي المعطر، وهي تقول لي:

- خذ حذرك من الأفاعي والعقارب هناك في الصحراء..

كما سردت لرفيقي قصة أبى المزهو بي دائماً، والذي عندما يراني يفاخر بي بين أقرانه قائلاً:

- هذا هو ابنى (الجَمل) كما ترون !

كان يلقبني بالجمل لطول قامتي..

لاشيء سوى هذه الصحراء المترامية الأطراف، والليل الخريفي يتمطى بارتخاء، ونباح الكلاب وأضواء سيارات المهربين.

مددت يدي إلى جالون الماء، وتجرعت منه عدة جرعات.. بعد أكثر من ساعة ونحن نسير.. أحسست أننا تقدمنا أكثر من قبل.. شجيرات المثنان الكبيرة في هذه الأراضي المهجورة.

أشعلت المصباح الضوئي الصغير الذي كان بحوزتي، دبت القشعريرة في جسدي هتفت برفيقي في ذعر ورعب، عندما لمحت تلك الأقراص الدائرية قلت له:

- لقد وقعنا في حقل ألغام يا صديقي. تساءل في جدية وقلق:

- وما هو العمل إذن؟

طلبت منه ألا يتقدم أكثر، وأن يحفر حفرة تحته بحذر وأن يجلس في مكانه.

امتثل هو لذلك... بينما نزعت حربة البندقية من الغمـــد.. شرعت أحفر بها تحتي..

جلسنا وهضاب من الخوف تخيم علينا.. كل واحد منا لا يدري ما يخبئه له القدر وسلاحه إلى جواره.. الليـــل يمـــضي بطيئاً ثقيلاً .. الماء يكاد أن ينفد بعد ســاعات ترامـــى إلـــى أسماعنا هدير سيارة كانت تقترب منا .. وضع صديقي إصبعه في فمه وشرع يصفر لعله يسمعه ذلك المهرب.. أخذت بندقيتي وصوبت فوهتها إلى أعلى، وأطلقت عدة اطلاقات في الهواء، لكن هيهات أن يفطن لنا ذلك المهرب، أو ربمـــا فطـــن لنـــا فاستدار بسيارته إلى الخلف، في خوف وذعر واختفـــى فـــي الظلام الدامس ...

بدأ هديرها يختفي شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً..

الموت كامن على خطوات منا.. بـــرز فجـــأة شـــعور بالخوف والفزع. هل سنموت وسط حقل الألغام هذا؟

أحسست بالبرد القارس، تحسست حذائي الأيسر ونزعته،

وضعته تحتي في تلك الحفرة ما إن مددت رجلي على الأرض إلى الأمام، حتى دوّى فجأة انفجار مروع هائل، حمل معه الغبار والتراب، ولم نفطن لأنفسنا إلا بعد برهة، حيث أحسست بحرارة في جسدي وطنين لا يفارق أذني، لم أعد أرى رفيقـــي، ســـائل ساخن ينحدر على خدي من إحدى عيني، وكأنها قد خرجت من مكانها، وألم حاد في إحدى رجلي، بعد أن صحونا من الإغماء غمغم رفيقي فقد كان على قيد الحياة.. لكنه هو الآخر لم يعـــد يرى شيئاً ما هذا الكابوس الفظيع ؟ هل أنا في حلم أم ماذا ؟ بعد ساعة استرجعت أنفاسي، أحسست بآلام حادة وفظيعة في ساقي الأيسر، والذي كأنه قد بتر، هو الآخر ويغرق في دمه، أخـــذنا نقاوم بصعوبة بالغة الألم والظمأ.. يصل إلى أســـماعنا نبـــاح الكلاب بين الحين والآخر، وما أن أحسسنا بحرارة الشمس تطل علينا حتى تناهى إلى أسماعنا هدير سيارة، أخذت تقترب بعـــد ليلة طويلة من العذاب وسط الجحيم وها هي أصوات وجمـــوع بشرية تقترب منا.

العوسجة

- لا أدري كيف طاوعتك أيتها العجوز؟

تساءلت بينك وبين نفسك وأنت تدفن نفسك في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وهي تغفو إلى جوارك، وقد أنهكها السفر والتعب المضني، الركاب يخلدون إلى الصمت، بينما السيارة تسابق الرياح على الطريق الثعباني الطويل متجهة نحو الغرب

رددت بينك وبين نفسك :

«لقد أغدقت علي بحنانها ودفئها، وهجرت أولادها من أجلي، تلك المرأة ودللتني في بيتها، وعشت بين أحضانها كأمير متوج، مودعاً ليالي الحرمان والصقيع والجفاف في ذلك المعسكر القاحل، والأوامر التي لا تنتهي»

تتذكر كيف أنك كنت تقبع مع أسرتك في الغرب، وكيف التحقت بالعسكرية صغير السن هناك حتى فوجئت ذات يوم بأن معسكرك سينتقل إلى مدينة نائية في أقصى الشرق.

ومضت سنوات نسيت خلالها أهلك، هناك حتى هبطت عليك فجأة هذه العجوز وهي تفتش عنك في هذه المدينة الصغيرة ألست هو فلذة كبدها؟

ما أن وجدتك حتى أخذت توبخك في حزن وغضب مرددة:

- ماذا تفعل مع هذه العوسجة التي بلغت سن اليأس؟

- ....

- أنت يا بني مازلت في عنفوان الشباب وتحتاج إلى من يحمل اسمك من بعدك ويسند ظهرك. وما أن أقبلت امرأتك يومها من عند أقاربها وفوجئت بأمك حتى دخلها الرعب والفزع، لكنها احتضنتها في ترحيب مصطنع، فهي نذير سوء بالنسبة لها.

ولم تمض ساعات حتى كانت أمك تلملم أشياءها، وتنهض أنت وتنسحب خلفها، كأي طفل رضيع .

وزوجتك تودعك عند الباب، وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تهتف بك:

- إذا طالت غيبتك هناك لا تنس أن ترسل لي بورقة الطلاق...

الوجه الآخر

في صمت الشوارع المتربة، تمارس الأقدام سيرها، نحو هذا الفندق الغافي في أحضان البحر.

دفعت الباب الزجاجي في ذلك اليوم الخريفي، ودخلت وسط هالة من الصمت والدفء، اقتربت من موظف الاستقبال، سألته عن المدير.. أبلغك أنه لم يحضر بعدما اتجهت نحو صالة الانتظار .. ارتميت على مقعد وثير .. رنوت ببصرك نحو تلك اللوحة للبدوية الحسناء التي كانت ترتدي الرداء الحريري الزاهي الألوان، وأمامها التنور، بعد لحظات أطل من الباب الزجاجي رجل أنيق الهندام، يرتدي بدلة رمادية، يحمل حقيبة سوداء، هذا الوجه ليس بغريب عنك حملقت فيه:

- أليس هو؟ لكن من أين هبطت عليه كل هذه الوجاهة والثراء مرة واحدة؟ وينزل في هذا الفندق ذي الخمسة النجوم بعد أن كان يقطن تلك «البراكه» من الصفيح ويعجز حتى عن تسديد الإيجار الشهري للحاجة عائشة والذي كان لا يتجاوز العشرين دينارًا لا .. إنه ليس هو..

قد يخلق من الشبه أربعين لكن لتقطع الشك باليقين نهضت من على المقعد هتفت باسمه بصوت عال:

- كيف حالك يا علي ؟

التفت إليك ومد أطراف أصابعه وهو يبتسم قائلاً:

- أهلاً صالح. ثم انسحب، وتركك ماضياً إلى حجرته، عدت من جديد إلى مقعدك، وقد أحسست أنك أخطأت عندما وقفت ورحبت به جاءك موظف الاستقبال وهو يهتف بك:

- هل عرفت ذلك الرجل؟

بادرته قائلاً:

- كيف لا أعرفه وقد كان يسكن بجواري في حي الحطية في براكة من الصفيح. ابتسم موظف الاستقبال قائلاً :

- اليوم يعيش في رغد وبحبوحة فقد تزوج من امرأة ثرية جعلت منه رجل أعمال ومدير شركة كبيرة. وبعد دقائق وصل مدير الفندق دخلت عليه مكتبه، وما أن رآك حتى هتف بك:

- لا توجد لدينا حالياً وظائف شاغرة .

الموطن والمسؤول

في الصباح هرول المواطن (س) نحو مبنى الإسكان العتيق، وظل ينتظر المدير لعدة ساعات طويلة، لكنه لم يأت إلا بعد الثانية عشرة ظهراً، ببدلته الأنيقة وسائقه الخاص، الذي كان يتبعه كظله يحمل عنه حقيبة سوداء ومفاتيح السيارة الفخمة، يبدو المدير متورم العينين، تتدلى بطنه أمامه وهو يمشي الهوينى، توقف السائق عند مدخل الباب، لم يدع أحداً يدخل على مديره، حتى أذن له بعد مضي أكثر من ساعة دخل عليه المواطن(س) وأفضى إليه بحاجته الماسة لشقة صغيرة تؤوي أسرته الفقيرة التي تقطن في ذلك الكوخ المتهالك في اللامبالاة وببساطة أجابه المدير دون أن ينظر إليه فقد كان يطلع على بعض الرسائل في بريده اليومي ويوقع عليها.

- هل تراني الآن أوزع الشقق والبيوت السكنية.

- لا ، ولكن...

قاطعه المدير:

- إذن هيا اغرب عن وجهي ولا تضيع وقتي.

عند ذلك استشاط المواطن (س) غضباً وبدلاً من أن ينسحب ويمضي، تقدم نحوه في عصبية، ودون أن يدري ما يفعل وجد نفسه يحمل المنضدة التي أمامه، ويقلبها رأساً على عقب، حيث تناثرت تلك الأوراق والملفات وتطايرت في أرجاء المكتب، وقد سقط المدير من على كرسيه في رعب وفزع، وهو يصرخ ويستغيث طالباً النجدة والإغاثة ..

الجـــوع

ها أنت ذا تجرجر قدميك وسط الرمال اللافحـــة، داخـــل المعتقل الذي يكتظ بآلاف المقهورين والمعذبين والجوعى.

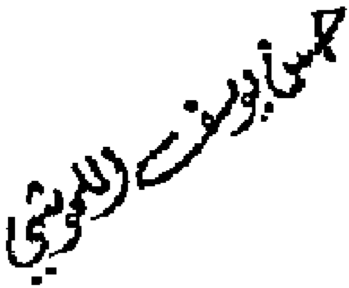
ولدت وسط أزيز الطـــائرات، ودوي المـــدافع، وهـــدير القنابل، وزحف جحافل من البُرص الأوباش نحو بلادك.. لم تعد تخشى شيئاً اليوم في حياتك، فقد تجرعـــت البـــؤس والـــشقاء والحرمان والجفاف، وأنت لم تناهز العقد الثاني مـــن عمـــرك تمشي وسط هذا المعتقل تبدو مثل قط مـــذعور، تتلفـــت يمينـــاً وشمالاً تتراءى لك أشواط الخيام المتناثرة،داخل السياج الـــذي يمتد لمسافات كبيرة في الأرض السبخة، تصل إلى أنفك روائح الجثث المتفسخة، تضع يدك على أنفك في ضيق، شـــيخ مـــسن مررت به كان يطارد أسراب النمل ويختطف منها حبات الشعير المحدودة، ثم ظل ينفخها بفمه، وهي بين كفيه من أجل أن يطعم بها صغاره، ياله من جوع قاهر وعدو جائر، عند نهاية الأشواط كانت ثمة امرأة، متقرحة الشفتين، وعند قدميها طفـــل صـــغير لا يتجاوز الخامسة من عمره، يتشبث بها، وهـــو يغـــرق فـــي

دموعه وصراخه من الجوع، اقترب منه وحمله بين يديه ووضعه على صدر أمه المصلوبة التي كانت تهتف به :

- فك قيدي حتى أستطيع إرضاعه.

اقترب منها وفك أغلالها، وما أن ألقمت الطفل الثدي، حتى التهمه في جوع، وكف الطفل عن الصراخ، وعندما أراد الرجل أن يسألها عن عقوبتها، لم يفطن إلا وذلك الأبرص، يلهب ظهره بالسوط اللاذع، وهو ينهره في غضب:

- سوف أصلبك مكانها أيها الأحمق.



الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

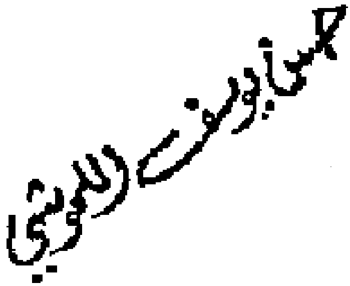
حسين نصيب المالكي

**** الميلاد:** 1953م

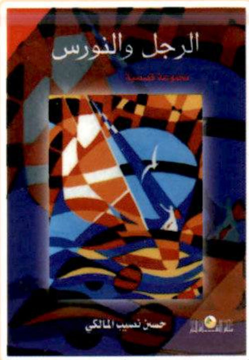
- عضو رابطة الأدباء والكتاب والصحفيين الليبيين. بدأ نشر إنتاجه في الصحف والمجلات.
- مؤسس صحيفة البطنان / طبرق بتاريخ 9 / 7 / 1986م.

**** الإصدارات**

- « مقبولة » مجموعة قصص قصيرة 1979 م الشركة العامة للنشر والتوزيع – طرابلس.
- شاعر معتقل العقيلة دراسات في التراث الشعبي 1981 م الشركة العامة للنشر والتوزيع – طرابلس.
- وتجسد الحلم مجموعة قصص قصيرة 1984 م المنشأة العامة للنشر والتوزيع – طرابلس.
- صور من الجهاد الليبي في طبرق 1995 م مطابع الثورة / بنغازي .
- قراءات في القصة القصيرة 2006 م منشورات مجلة المؤتمر.
- ديوان هاشم بو الخطابية – دراسة وتحقيق 2008 م. مركز نهر النيل – مصر.
- يشغل حالياً رئيس تحرير موقع الصياد الثقافي الشامل / طبرق .



تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - تليفون 02/24025777
محمول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام